كارل يونج

يتحدث عن سيجموند فرويد

للمحرر

يذكر المعنون بدراسة علم النفس والتربية الفطاحل الثلاثة[1] الذين خلدت أسماؤهم فى سجلات التاريخ ، بفضل ما خلفوه من الارث السيكولوجى لأجيال الماضى والحاضر والمستقبل فى هذا العلم الفتى ، ألا وهم سيجموند فرويد ، وكارل يونج ، والفرد ادلر ، الذين لمعت أسماؤهم فى سماء ڤينا الجميلة فى أواخر القرن التاسع عشر وشطر كبير من القرن العشرين .

كما يذكر القراء ، أن كلاً من يونج وادلر ، قد اختلف مع استاذه وزميله فرويد ، لتشبث فرويد برأيه فى مسألة الجنس ، ووضعه فى المرتبة الأولى بين كافة العوامل التى يتأثر بها السليم والمريض على السواء ، والتى توجه نشاطه فى الحياة . وقد افترق الثلاثة . فظل يونج يتزعم مدرسة زوريخ فى علم النفس إلى أن توفى فى سنة ١٩٦١ ، ومع عدم إغفاله مسألة الجنس ، فانه وضعها فى المرتبة الثانية فى تشكيل حياة صاحبها ، بعد عدة عوامل أخرى اجتماعيةوروحية سيأتى الحديث عنها . وظل ادلر يتزعم مدرسةالسيكولوجيا الفردية (Individual Psyc'ogy) فى ڤينا ، ثم بعد ذلك فى أميركا التى هاجر إليها وتوفى فيها سنة ١٩٣٧ ، ومع عدم إغفاله الجنس كذلك ، فانه فى رأيه فى المرتبة الثانية بعد تأكيد الفرد لذاته (self-assertion) ، وخلوه من عقدة النقص (inferiority complex). كذلك فرويد ظل متمسكاً برأيه فى الجنس فى ڤينا ، إلى أن اضطهده النازى وهاجر إلى انجلترا حيث توفى فيها سنة ١٩٣٩ .

ولا تزال كل من المدارس الثلاث قائمة فى جميع أنحاء العالم المتمدين ، ولكل منها

---

(1) Sigmund Freud (1856-1839), Carl Jung (1875-1961) and Alfred Adler (1870-1937)

أعوانها وأنصارها، ومؤلفاتها، ومجلاتها الدورية. وجماعاتها، ومؤتمراتها الدورية. وإن كانت مدرسة فرويد التحليلية (The Psychoanalytic School)، أشهرها وأكثرها نفراً وأتباعاً.

* * *

هذه مقدمة وجيزة لهذا المقال الذي ننشره بمناسبة كتاب لمؤلفه كارل يونج نشرته بعد موته « پانثيون » إحدى مؤسسات الطباعة والنشر وموضوعه « ذكريات وأحلام وتأملات » ضمنه بعض تاريخ حياته، وخلافه مع فرويد لتشبث فرويد برأيه فيما يتعلق بالجنس وأهميته في حياة الانسان.

وكان يونج قد فرغ من وضع هذا الكتاب قبل وفاته بقليل،أى في الثالثةوالثمانين من عمره، ومن أقواله في سرد قصة حياته « إن حياتي تحقيق ذاتي عن طريق العقل الباطن. فكل شيء في العقل الباطن يسعى للظهور إلى عالم الحس. وكذلك الشخصية ترغب في الخروج عن العوامل التي تربطها بالعقل الباطن، حتى تختبر ذاتها اختباراً كاملاً ».

وتدل العبارة الأخيرة، أولاً على تأثره العميق بنظرية العقل الباطن وأهميته في حياة الإنسان، بل وتفوقه في هذه الأهمية على العقل الواعي، وثانياً بفلسفته التي لا تخلو من لون من ألوان التصوف (mysticism) والغموض.ولا يسع من اطلع على مؤلفاته العديدة إلا أن يلاحظ ذلك في أكثر ما خط قلمه. ولنتركه في بقية المقال أن يتحدث عن نفسه وعن فرويد:

من أصعب الأمور أن يكتب الشخص عن ذاته. ان ما يدور في باطني من الأحاسيس والآراء كان على الدوام أهم ما عداها من الحوادث الخارجية — من رحلات وأسفار وشئون.

وقد تأثرت في عملي كطبيب للأمراض العقلية (psychiatrist)، بثلاثة من كبار الأطباء،زملائي على الأخص،وهم سيجموند فرويد،وجوزيف بروير [1]،وبيير جانيه [2].

---

(١) جوزيف بروير (١٨٤٢ — ١٩٢٥، Joseph Breuer) من أشهر أطباء الامراض العقلية في فيينا ومنذ ١٨٧٥ لجأ الى التنويم المغنطيسي في علاج الهستيريا (٢) بيير جانيه (١٨٥٩ — ١٩٤٧، Pierre Janet) من أشهر أطباء الامراض العقلية في باريس.

وانني مدين لهم جميعًا بما ملأوا به ذهني من الآراء ، وما غذوني به من العلم الغزير .

وقد تأثرت إلى حد بعيد على أخص الخصوص ، بطريقة فرويد في تحليل الأحلام وتفسيرها . فقد قرأت كتابه في تفسير الأحلام سنة ١٩٠٠ ، على انني أعترف بأنني ألقيت به جانبًا في ذلك الحين ، فقد استغلق على فهمه ، وقد كنت في الخامسة والعشرين من عمري ، وكان ينقصني الاختبار والمران . ولم يثنني العزم على متابعته ، فعدت اليه سنة ١٩٠٣ ، وعكفت على دراسته ، فتبين لي أن الآراء التي جاءت فيه تنطبق على آرائي ، لا سيما تطبيقه نظرية الاعلام على ميكانزم الكبت (repression) . ومما استرعى أنظاري في هذه الناحية ، ما شهدته في تجاربي الخاصة في ترابط الكلمات (word association) . كنت أتقدم للمريض بكلمة وأطلب اليه أن يتبعها هو فوراً بكلمة من عنده . وكانت نظريتي في ذلك أن كلمة الجواب (word response) ، بعد كلمة الإثارة (word stimulus) تدل على ما يجيش في خاطر المريض من متاعب وآلام وعقد وأفكار وهواجس . وكنت ألاحظ دلائل الكبت في الحالات التي يلزم فيها المريض في الإجابة ، الصمت ، أو التردد ، أو طول الفترة بين كلمة الإثارة وكلمة الجواب ، مما ينهض دليلاً على أن كلمة الإثارة قد مست فيه وتراً حساساً نفسيًا ، وسببت له انزعاجًا لسبب ما ، قد يكون صراعًا (conflict) داخليًا أو صدمة نفسية (lesion) أو غيرذلك. ولم يكن المريض في هذه الأحوال واعيًا لما يحدث ، فإذا ما سئل عن سبب صمته أو تردده أو طول وقوفه قبل الإجابة ، لا يبدي عذراً مقبولاً ، لأنه لا يعرف .

* * *

وإلى هنا انتهى اتفاقي مع فرويد فيما يختص بنظرية الكبت ، إذ انني خالفته بعد ذلك لأنه عزا الكبت إلى عامل واحد ، ألا وهو عامل الجنس (sex) . ففي الحالات التي عالجتها ، لم تخل العوامل الجنسية منها ، ولكنها كانت ثانوية ، وكان هناك ما هو أهم منها ، مثال ذلك : التكيف الاجتماعي ، ضغط مآسي الحياة ، كرامة الشخص واعتباره وشرفه . وقد عرضت خبراتي هذه على فرويد بوصفه أستاذاً وزميلاً وصديقًا ، فأبى أن يستمع إليّ ، وتمسك برأيه إلى النهاية ، مؤكداً لي انه لا يوجد سبب آخر لميكانزم الكبت سوى العوامل الجنسية . فلا غرابة إذا ضقت ذرعًا به .

وكنت أعد رسالة تتوقف عليها ترقيتى فى هيئـــة التدريس فى الجامعة ، وكنت شغوفًا أن أتصـــل بفرويد ، لأستعين بخبراته ، ولـكنى خشيت أن يترتب على ذلك استياء الأوساط الأكادمية منى ، فقد كان فرويد شخصيـــة غير مرغوب فيها فى تلك الأوساط وكان الحديث عنه يدور همسًا فى الدهاليز والأروقة ، لا فى المجتمعات العامة. ومع كل هذا الحذر من جانبى ، ومع كل ما اتخذته من حيطة ، فقد كان ما أسفر عنه بحثى فى الرسالة مبنيًا على بعض نظريات فرويد ، مما ترتب عليه سخط زملائى علىّ .

وقد عمدت مرة أن أنشر آرائى المستمدة من نظريات فرويد ، دون أن أذكر اسمه أو أشير إليه بكلمة ، إلا ان الضمير الذى كان ينبض بعنف فى داخلى أنبنى بشدة ، فقد شعرت أن انكارى الجميل اختلاس ومكيدة . ومنذ ذلك الحين آليت أن أكون شريكا لفرويد ومدافعًا عنه بكل قواى . وفى مؤتمر فى ميونيخ ألقى أحدهم محاضرة عن عصاب الوسواس (obsession) ، وقد أحجم فيهـا عن ذكر فرويد صاحب الفضل فى هذا الموضوع. فوقفت أهاجمه لأضع الأمور فى نصابها . وفى سنة ١٩٠٦ ، بمناسبة هـــذا الحادث نشرت مقالاً فى إحدى مجلات مونيخ عن نظرية فرويد فى العصاب (neuroses) . واستجابة لهذا المقال كتب لى ألمانيان من أطبـاء الأمراض العقليـة ينذرانى ويهددانى بأننى إذا لم أمتنع عن الدفاع عن فرويد ، يتصدع مركزى العلمى ، فأجبتهما إذا كان ما يقوله فرويد هو الحقيقة فأنا معه ، ولست أبالى إذا كان مركزى العلمى يقف حجر عثرة فى سبيل البحث العلمى ، والتوصل إلى الحقيقة . وعلى ذلك واصلت الوقوف فى صف فرويد والدفاع عنـــه . ومع ذلك فقد اتضح من تجـاربى وعلاجى لمرضاى ان العامل الجنسى ليس كل شىء فى العصاب . على ان هـــذا لم يمنع الاعتراف بجهود فرويد والآفاق التى كشف النقاب عنها ، وقد كان من السخرية أن ترتفع أصوات الزملاء لمحاربته .

ولمـا نشرت كتابى فى الجنون المبكر (dementia praecox) لم أجد تعضيداً من زملائى ، ولـكن هذا الـكتاب كان وسيلة لتعرفى على فرويد . وكانت أولى زياراتى له فى فينا فى يناير سنة ١٩٠٧ . كان ذلك فى الساعة الواحدة بعد الظهر وقد واصلنا الحديث بغير توقف مدى ١٣ ساعة كاملة أى إلى نهاية الساعة الثانية بعد نصف الليل . وكان

فرويد فى ذلك الحين أهم رجل ذى حيثية قابلته فى حيـاتى ، ولم يكن هناك من كان فى وسعه أن يقارن به ، فقد كان كل شىء فيـه عظيما ، كان حاد الذكاء إلى درجة لا تجارى وكان حصيفاً وممتازاً . ومع كل ذلك كانت أولى انطباعة فى عنـه انه كان لا يسبر غوره وكان من العسير فهمه .

وقد ترك ما قاله لى بصدى نظرياته فى الجنس أثاراً عميقة فى نفسى ، ومع ذلك عجزت كلمـاته عن انتزاع شكوكى وترددانه منى . وفى كل مرة كنت أحاول الادلال إليه بهـذه الشكوك كان يعزى تحفظاتى إلى افتقارى إلى الخبرة . وكان هذا صحيحاً فى ذلك الحين ، فلم تـكن لدى الأدلة القاطعة التى بها أويّد اعتراضاتى . وقد تراءى لى ان نظرية الجنس هـذه كانت عظيمة الاهمية عنده من الوجهتين الشخصية والفلسفية . وقد ترك ذلك أثراً فى نفسى ، على اننى لم أستطع معرفة أية الوجهتين كانت أكثر مدعاة لتمسكه بهذه النظرية ، تحيزه الشخصى أو الأدلة التى تسندها التجارب ؟

وكان هناك شىء آخر بالغ الأهمية فى تلك المرة الأولى التى تقابلنا فيها . وذلك الشىء يتعلق بأمور لم أفـكر فيها مليًا أو أنفهمها إلا بعد ان انقطعت صداقتى به . فقد تبين لى بطريقة لا يشوبها الشك ان فرويد كان فى نظرية الجنسية غائصاً فى لجة عاطفية شخصية ، خيل الى انه لم يستطع الخروج منها . والدليل على ذلك انه كان إذا تحدث عنها ، تغيرت لهجته فجأة واشتدت أوتارها فأصبحت ملحة عنيفة ، وبدت عليـه علائم القلق وتبددت منـه كل آثار الارتياب أو التردد فيما يقول . وتوهجت ملامحه بموجة صاخبة من الانفعالات ، احترت فى أمرها . وكدت أؤكد بالبديهة ان الجنس عنـده أصبح ديناً أو عقيدة لا سبيل له أن يحيد عنها قيد شعرة . وقد ثبت لي ذلك فى محادثة دارت بيني وبينه مرة أخري بعد ذلك بثلاث سنوات فى فيينا أى فى سنة ١٩١٠ .

ولن أنسى ما قاله حينذاك بالحرف الواحد « عدنى يا عزيزى يونج ألا تتخلى أبداً عن نظرية الجنس ، فهى تفوق فى أهميتها كل شىء آخر . ألا تري انه يتحتم علينا أن نتخذها مذهبًا وعقيدة ، ومتراساً لا تهزها الحوادث ؟ » قال هذا بلهجة قوية ونغمة

زاخرة بالعاطفة ، وكأنه والد يسدى لولده نصيحة غالية يتوقف عليها مستقبل حياته ، وقد أزعجتنى كل من كلمتى متراس وعقيدة . فماذا كان يعنى بمتراس ؟ متراس ضد ماذا ؟ أو ليس معنى عقيدة استبعاد الشك ، وعدم الحكم على الأشياء بالطريقة العلمية بل إخضاعه للدافع الذاتى ؟

ان نظرية الجنس فى نظرى ما هى إلا إحدى الفروض التى قد تكون كافية مؤقتاً ، مع عدم الجزم بصحتها أو اتخاذها عقيدة . ومهما يكن من شىء فان الجنس عند فرويد على ما بدا لى ، كان شيئاً آخر غير ما يفهمه سائر الناس من مدلول الكلمة . اذ كان عند فرويد دينا كان عليه التمسك بأحكامه . ومن الواضح انه ازاء هذا التشبث بفكرة دينية كهذه لا يسع المرء إلا أن يكون خجولا كتوماً ملازم الصمت ، لذلك وضعت حداً للجدل معه حول هذا الموضوع بعد عدة محاولات وتعثرات فاشلة .

والواضح الذى حيرنى امره فى فرويد انه استبدل إلهه « يهوه »(١) باله آخر سماه الجنس ، اى انه استعاض عن إله السماء بآخر فى الأرض .

فى سنة ١٩٠٩ جاءتنى دعوة من جامعة كلارك فى وورشستر بأميركا لالقاء محاضرة، وقد وصل فرويد دعوة مثلها كذلك فاتفقنا أن نسافر معاً . وفى طريقنا قابلنا فى بريمن بألمانيا العالم السيكولوجى ساندرفيرنزى (sandor Ferenczi) فشاركنا فى هذه الرحلة . ومن الحوادث الغريبة فى السفر اغماءفرويد بمجرد حديثى عن بعض الجثث المتحجرة التى وجدت فى شمال ألمانيا، وقد فسر سبب الاغماء اننى أكن له فى عقلى الباطن رغبات الموت ، فهالنى تفسيره هذا . وحدث مثل هذا الاغماء له مرة أخرى فى ميونيخ أثناء انعقاد مؤتمر التحليل النفسى سنة ١٩١٢ ، وكان الباعث المباشر للإغماء مجرد حديث عابر عن امنحوتب الرابع (اخناتون) .

وقد دامت الرحلة إلى أميركا التى بدأت من ميناء بريمن فى ألمانيا سبعة أسابيع قضينا فيها فترة بديعة فى الجدل والحديث . وكنت على الأخص أقضى جانباً كبيراً من وقتى مع فرويد فى تفسير الأحلام . وقد كانت أحلامى كثيرة طيلة هذه

(١) من المعلوم ان فرويد يهودى وان « يهوه » فى التوراة معناها « الله » .

الأسابيع ، على أنها كانت جميعها ألغازاً عجز فرويد عن تفسيرها ، ولم يقلل هذا من احترامى لفرويد وخبراته الواسعة إذ كنت أعده أستاذاً ووالداً رغم تقارب السن ، كما ان ذلك لم يحل دون استمرارى فى وضع أحلامه أمامه لمحاولة تفسيرها ، على انه للأسف حدث ما وضع حداً لهذه العلاقة :

فقد جاءنى فرويد بأحد أحلامه وأخذت أفسره جهد استطاعتى، ولكنى طلبت اليه أن يزيدنى علماً ببعض حياته الخاصة لأنها لازمة لاستيفاء التفسير ، فسدد إلىّ نظرة فاحصة قائلاً « لن أخاطر بسلطتى » فكان لهذا الجواب وقع شديد الأثر فى نفسى لأن معنى هذا انه يؤثر سلطته الخاصة على الحقيقة . وعلى كل حال فقد كان تفسير فرويد لأحلامى رغم قصورها ، داعياً لوضع كتابى « سيكولوجيا العقل الباطن » .

وقد اتضح لى من عشرتى لفرويد فى الرحلة إلى أميركا انه كان مصاباً بعصاب ذات أعراض متعبة ، وقد نمى إلىّ مراراً أننا كلنا مصابون به وعلينا أن نتسامح ازاءه ، على ان هذا التعليل لم يكن كافياً لإقناعى .

وبينما كنت أضع اللمسات الأخيرة لكتابى « اللبيدو » (Libido) كنت أدرك سلفاً أن نشره سيكلفنى خسارة صداقتى لفرويد ، لأننى أبنت فيه وجوه الاختلاف بينى وبينه فى موضوع الزنا بالمحرمات (incest) . وقد تحدثت إلى زوجتى فى الموضوع ، فحاولت أن تؤكد لى ان فرويد سيكون كريماً ومتسامحاً ، ولن يبدى اعتراضاً على اختلافى معه فى هذا الموضوع . على اننى لم أقتنع برأيها ، وظللت شهرين لم يجد القلم فيها بين أناملى مكاناً . ولست أكتم قرائى أن هذا الصراع بين الإقدام والإحجام كان سبباً لعذابى . على اننى نشرت الكتاب أخيراً ، وكان نشره كما توقعت سبباً فى قطع العلاقة بيننا وفقدان الصداقة نهائياً .

* * *

إن أهم ما أداه فرويد من الخدمات وأجلها شأناً فى رأيى ، الطريقة الحديثة التى تغلغل بها فى حياة المريض العصابى (neurotic) ، وتدخله فى أعماق نفسيته . فقد بلغ من الشجاعة فى علاج المريض ؛ أنه نجح فى تركه يتحدث عن نفسه وينبش ما فيها من

أسرار ، ويخرج ما فيهـا من مكنونات . كان فرويد ينظر إلى شكاوى المريض بالعين التى كان ينظر بها المريض ذاته . وبهذا توصل إلى تفهم أعماق نفسيتـه ، تفهماً لم يفز به أحد قبله . وكان مثله مثل أنبياء العهد القديم (التوراة) الذين قضوا على الآلهـــة الكاذبة ، إذ مزق الحجب التى كانت تسدل على النفاق والرياء والخيانات ، وكشف لنا عن النفس (psyche) عارية لا يحجبها ستار .

وقد كان له الأيادى البيضاء على الحضارة الانسانية بتمهيـــده ذلك السراط المستقيم الذى اكتشفه ، فأدّى به إلى العقـل الباطن (the unconscious) ، فضلاً عن نظرية الأحلام التى هى أهم مصـدر ينبع منه كل ما يجيش فى ذلك العقل من خواطر . وقد كان هذا الـكشف سلاحاً من أقوى الأسلحة التى نعِمت به الحضـــارة ، وإن كانت فلسفته لا تزال بعيدة عن الفهم كاملة ، رغم مرور أكثر من نصف قرن على ظهورها.

شذرات

أدب المعاملة

عامل الآخرين وكأنهم فى الدرجة الرفيعة من الأهمية التى يعلقونها هم على أنفسهم

سؤال فى محله

استضاف انجليزى كبيراً من الصين ، وأطلعه على كافة الآلات والوسـائل « الاتوماتية » الـكهربائية التى توفر عدة سـاعات يومياً لربة البيت . وبعد أن استمع الضيف إلى مضيفه وهو يشرح هـــذه الآلات ، سأله : وما الذى تصنعونه بكل هذه الساعات التى توفرونها يومياً ؟

آفة الراحة

نظراً لتوافر الآلات العديدة « الاتوماتية » التى تريح ربة البيت من عناء العمل المنزلى ، أصبح من المحتم عليها شراء آلة كهربائية تساعدها على تمرين عضلاتها